

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: 91]

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنها جاءت "كالنتيجة لما قبلها من ذكر الأنبياء وما جاؤوا به من الهدى والشرائع والكتب، فلا جرم أن الذين قالوا: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، قد جاؤوا إفكًا وزورًا، وأنكروا ما هو معلوم في أجيال البشر بالتواتر"⁽¹⁾، يقول لهم: "من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، نورًا يضيء، وهدى يرشد؟! إنكم - أيها اليهود - تجعلون كتابه في أجزاء متفرقة، تظهرون منها ما يتفق وأهواءكم، وتخفون كثيرًا مما يلجئكم إلى الإيمان والتصدق بالقرآن، وعلمتكم منه ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آبائكم"⁽²⁾.

المناسبة بين
هداية النبوات
المقتدى بها،
وبين إنكار
اليهود لنزول
الوحي

❖ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿قَدَرُوا﴾: (قدر) أصل يدل على مبلغ الشيء وكُنْهه ونهايته، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، أي: ما عرفوا كُنْهَهُ، وما عظموا الله حقَّ عظمته، وهذا صحيح، وتلخيصه أنهم لم يصفوه بصفته التي تنبغي له تعالى⁽³⁾، والمعنى: "ما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده، واللطف بهم، حين أنكروا بعنة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 361/7 - 362.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 187.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزغب، للفردات: (قدر).

الرُّسُلَ والوحي إليهم، وذلك مِنْ أَعْظَمَ رَحْمَتِهِ، وَأَجَلُ نِعْمَتِهِ“⁽¹⁾، وخلاصةُ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: ما قاله الحسنُ والفراءُ والزَّجَّاجُ: أي: وما عَظَّموه حَقَّ تعظيمه، وقال الخليل: أي: وما وصفوه حَقَّ صفته، وقال أبو عبيدة: أي: ما عرفوه حَقَّ معرفته“⁽²⁾.

(2) ﴿بَشَرٍ﴾ (بشر): أصلٌ يدلُّ على ظهور الشَّيء مع حسنٍ وجمالٍ، البَشَرَةُ والبَشَرُ: ظاهرُ جلدِ الإنسان، وبَشَرَةُ الأرضِ: ما ظهر من نباتها، وقد أَبَشَرَتِ الأرضُ، وما أحسن بَشَرَتَها! والبَشَرُ: الخلقُ، يقعُ على الأنثى والذكر والواحد والاثنين والجمع، وسمِّيَ البشرُ: بشراً لظهورهم⁽³⁾. ويجوز أن يقال: إِنَّ قولنا: بشرٌ، يقتضي الظُّهور، وسمُّوا بشراً؛ لظهور شأنهم، ومنه قيل لظاهر الجلد: بشرة، والبشر واحد وجمع، وفي القرآن: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الؤمنون: 24]، وتقول محمَّد خيرُ البشر، يعنون النَّاسَ كُلَّهُم، ويثنَّى البشر، فيقال: بشران، وفي القرآن: ﴿أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [الؤمنون: 47]، ولم يسمع أنه يجمع⁽⁴⁾.

(3) ﴿قِرَاطِيسٍ﴾: جمع القِرْطَاسِ: ما يُكْتَبُ فيه كالرَّقِّ والكاغِد ونحوها، لا كالخَشْبَةِ والحَجَرِ، وإن كان يُكْتَبُ فيه، وهو: الصَّحِيفَةُ الثَّابِتَةُ الَّتِي يُكْتَبُ فيها، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾، أي: في صحيفة، وكذلك قوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قِرَاطِيسٍ﴾، أي: صُحُفًا⁽⁵⁾، و(القِرطاس): معروف، ولا يسمَّى إلا بما فيه، فإن لم يكن فيه كتابٌ؛ فهو طِرْسٌ، قال:

بِهَا أَخَادِيدُ مِنْ آثَارِ سَاكِنِهَا *** كَمَا تَرَدَّدَ فِي قِرْطَاسِهِ الْقَلَمُ⁽⁶⁾

(1) ﴿ذَرَهُمْ﴾: (وذر) أصله مِنَ الْوَذَرَةِ: قطعةٌ مِنَ اللَّحْمِ، وتسميتها بذلك لقلة الاعتداد بها، فلان يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقْذِفُهُ لقلة اعتداده به⁽⁷⁾، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ

(1) الزَّمَخْشَرِيُّ، الكُشَافُ: 2/44، وينظر: الفخر الرَّازِيُّ، مفاتيح الغيب: 13/58، والقَتَوِجِيُّ، فتح البيان: 4/190.

(2) نشوان بن سعيد، شمس العلوم: 8/5404.

(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بشر).

(4) أبو هلال العسكري، معجم الفروق اللغويَّة، ص: 101، والفيَّومي، المصباح للنير: (بشر).

(5) الرَّاغِب، المفردات، ابن منظور، لسان العرب، والسَّمين، عمدة الحَقَّاف: (قرطس).

(6) الرَّاغِب، المفردات، ابن منظور، لسان العرب، والسَّمين، عمدة الحَقَّاف: (قرطس). البيت لزهير بن أبي سلمى، ينظر: السمين

الحلي، الدر للصون: 4/543.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغِب، المفردات: (وذر).

يَلْعَبُونَ»، والعَرَبُ قد أَمَاتَتِ المصدرَ من (يذر) والفعلَ الماضي، واستعملته في (الحاضر) والأمر، فإذا أرادوا المصدرَ؛ قالوا: ذَرَهُ تَرْكًا، أي: اتركه⁽¹⁾.

(2) **﴿خَوْضِهِمْ﴾**: (خوض): أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَوَسُّطِ شَيْءٍ وَدُخُولٍ، يُقَالُ: خُضْتُ الْمَاءَ وَغَيْرَهُ، وَخَاضَ الْقَوْمُ فِي الْحَدِيثِ، وَتَخَاوَضُوا، أي: تَفَاوَضُوا فِيهِ، وَالْخَوْضُ: هُوَ الشُّرُوعُ فِي الْمَاءِ وَالْمَرُورُ فِيهِ، وَيُسْتَعَارُ فِي الْأُمُورِ⁽²⁾. وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يَدُمُّ الشُّرُوعُ فِيهِ⁽³⁾. **﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾**، أي: "في باطلهم الذي يخوضون فيه"⁽⁴⁾، والخوض في الباطل مِمَّا نَهَتْ عَنْهُ الشَّرِيعَةُ، وَنَدَّدَتْ بِهِ الدِّيَانَاتِ، وَمِنْ التَّوْجِيهَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ أَنْ يُجَانِفَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ مَجَالِسَ الْخَوْضِ فِي الْبَاطِلِ؛ لِأَنَّهَا مَجَالِسُ إِثْمٍ وَإِفْسَادٍ، قَالَ تَعَالَى: **﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾** وَإِمَّا يُنْسَبُ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ **﴿[الأنعام: 68]**.

(3) **﴿يَلْعَبُونَ﴾**: أَصْلُ الْبَابِ: هُوَ الذَّهَابُ عَلَى غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ، وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ: اللَّعَابُ، وَهُوَ الْبُزَاقُ السَّائِلُ، لَعِبَ فُلَانٌ؛ إِذَا كَانَ فِعْلُهُ غَيْرَ قَاصِدٍ بِهِ مَقْصِدًا صَحِيحًا، يَلْعَبُ لَعِبًا، قَالَ تَعَالَى: **﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾** **﴿[الأنعام: 70]**، وقد جعل العربُ إهلاكَ الدَّهْرِ وإفسادهُ لَعِبًا، قال الشاعر:

ثُمَّ أَضْحَوْا لَعِبَ الدَّهْرِ بِهِمْ *** وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالرِّجَالِ⁽⁶⁾
وَاللَّعِبُ ضِدُّ الْجِدِّ، وَيُقَالُ: لَعِبَ لَعِبًا، وَتَلَاعَبَ وَتَلَعَّبَ، قَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ:
تَلَعَّبَ بَاعِثُ بِذِمَّةِ خَالِدٍ *** وَأَوْدَى عِصَامٌ فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ⁽⁷⁾

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

يخبرُ اللهُ تعالى عن الكافرين أَنَّهُمْ ما عَظَّمُوا اللهَ حَقَّ تَعْظِيمِهِ حين قالوا لِنَبِيِّهِ ﷺ:

(1) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (وذر).

(2) الرَّاغِب، للفردات: (خوض).

(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغِب، للفردات: (خوض).

(4) الزَّمَخْشَرِيُّ، الكشاف: 2/44، وأبو حَيَّان، البحر المحيط: 4/582.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغِب، للفردات: (لعب).

(6) أبو بكر الأَثْبَارِيُّ، الزاهر في معاني كلمات النَّاسِ: 2/286.

(7) ابن سيده، للحكم والمحيط الأعظم: (لعب).

تَأْكِيْدُ أَنَّ مُنْزَلَ
التَّوْرَةِ عَلَى
مُوسَى، هُوَ
مُنْزَلُ الْقُرْآنِ،
فَلِمَ الْجَحُودُ
وَالنُّكْرَانُ ؟

ما أنزل الله على بَشَرٍ شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ، بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ
مُوبِخًا: مَنْ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى نُورًا وَهَدَايَةً وَإِرْشَادًا
لِقَوْمِهِ؟ يَجْعَلُهَا الْيَهُودُ فِي دِفَاتِرِ يُظْهِرُونَ مِنْهَا مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ،
وَيَكْتُمُونَ مَا يَخَالِفُهَا؛ كَصَفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا
لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا أَسْلَافُكُمْ مِنْ قَبْلُ، وَيَبَادِرُهُمْ بِالْجَوَابِ بِأَنَّ اللَّهَ
تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَتْرَكَهُمْ فِي جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ،
حَتَّى يَأْتِيَهُمُ الْيَقِينُ⁽¹⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

بلادة العطف بين الجملتين في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾:

الدَّالَّةُ عَلَى
أَنَّ الْجُمْلَتَيْنِ
فِي غَرَضٍ وَاحِدٍ
إِبْطَالُ لِمَزَاعِمِ
الْمُشْرِكِينَ

عطف قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ على الجملة
السَّابِقَةِ؛ لِأَنَّهَا فِي غَرَضٍ وَاحِدٍ، فَوْجُودٌ "وَإِ الْعُطْفُ فِي صَدْرِ هَذِهِ
الْجُمْلَةِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ مُتَنَاسِقَةً مَعَ الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَأَنَّهَا
وَإِيَّاهَا وَارِدَتَانِ فِي غَرَضٍ وَاحِدٍ، هُوَ إِبْطَالُ مَزَاعِمِ الْمُشْرِكِينَ، فَهَذَا
عُطْفٌ عَلَى جُمْلَةٍ: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ [الأنعام: 89]، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ
ابْتِدَائِيَّةً فِي غَرَضٍ آخَرَ"⁽²⁾.

**سر التعبير بجملة: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ هنا وفي سورة
الزُّمَرِ خَاصَّةً:**

تَكْذِيبُ الْوَحْيِ
غَايَةٌ فِي الْجَهْلِ
بِعَظَمَةِ اللَّهِ
تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ

جاء قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً فِي إِنْكَارِ الْوَحْيِ
فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَمَرَّةً فِي الشُّرْكِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ،

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/139.

وسبب نزول الآية الكريمة ما أخرجه الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس روي "عن عبد
الله بن عباس ؓ، قال: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ نَبِيٍّ مِنْ شَيْءٍ"، يعني:
من بني إسرائيل، قالت اليهود: يا محمد! أنزل الله عليك كتابًا؟ قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من
السماء كتابًا؟ قال: فأنزل الله: قل يا محمد: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ
فَجَعَلُونَهُ قُرْآنًا يُتْلَوْنَ مِنْهَا وَتَعْلَمُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ
يَلْعَبُونَ﴾، قال: (الله أنزله). يُنظر: حسن سليم الهلالي، الاستيعاب في بيان الأسباب: 2/145.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/361.

يقول تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67]، فيلاحظ أنها جاءت بغرض التعظيم؛ إذ تبين عظمة ملك الله تعالى الدنيوي والأخروي، وعظمة قدرته ﷻ، وفي ذلك مبالغة في ذم الشرك، وذم الكافرين بتكذيب الوحي، وذلك لبيان عظيم منزلة الوحي؛ إذ إن الوحي الإلهي لعباده، ينفي العبثية عن الخلق، فهو من الأهمية بمكان؛ لذلك جاء في سياق غاية في التعظيم.

إيناز الفعل ﴿قَدَرُوا﴾ والعدول عن مرادفاته، نحو: (مَا عَظَّمُوا، وَمَا وَقَرُوا):

في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أثر القرآن التعبير بنفي معرفتهم قدر الله تعالى دون نفي تعظيمه؛ إذ لو قال: (ما عظموا الله، أو: ما وقروا الله) لأثبت لهم تعظيمًا وتوقيرًا، والحال ليس كذلك؛ فعبر بنفي معرفتهم قدر الله تعالى؛ لأنهم جاهلون به؛ إذ هم وإن عرفوا الله؛ فإن معرفتهم ليست كاملة؛ لذلك يصح إثبات معرفة قليلة لهم، والتعبير ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يدل على نقصان معرفتهم؛ لذلك كان الأنسب هو التعبير بنفي معرفتهم قدر الله تعالى لا نفي تعظيمهم له؛ ولأن تلك المقولة قيلت ليس بسبب أنهم لا يعظمون الله، بل لأنهم يجهلون قدره وعظمته.

دلالة الكناية بنفي معرفتهم قدر الله تعالى:

في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يُفصح التعبير بنفي معرفتهم قدر الله جل شأنه عن جهلهم بقدرته تعالى، ونفي معرفتهم لقدره سبحانه كناية عن حطهم لقدره الجليل، ووصفهم له تعالى بنقيض نعته الجميل، كما أن نفي المحبة في مثل: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 32]، كناية عن البغض والسخط⁽¹⁾.

التعبير بنفي معرفتهم قدر الله، يُثبت أنهم ما قدروه حق قدره

قرائن جهلهم بقدرته تعالى، ورحمته لخلقِهِ بإرسال الرسل إليهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/161.

والغرض من ذلك بيان جهلهم؛ ليبينَ عليه بطلان قولهم، بنفي إنزاله الوحي على عباده؛ إذ يتضمَّن هذا القولُ نفيَ الفعل عن الله تعالى في خلقه، وأنه تركهم بلا رسالة وتعاليم، انطلاقاً من العبيثية التي يؤمنون بها؛ إذ "اعتقدوا أن الله لا يبعث بشراً رسولاً؛ لأنه ما خلقَ هذا الوجود الإنساني عبثاً، بل بعثه ليتحمَّل الأمانة التي حمَّلها بمقتضى فطرته"⁽¹⁾.

بلاغة المجاز في الفعل ﴿قَدَرُوا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، أصل القَدَر والتقدير: تبينُ كميَّة الشيء، قَدَرْتُ الشيء: عرفتُ مقداره، وهو مقياس الشيء وضابطه، يقال: قَدَرَ القومُ أمرهم يقدرُونه: ضبطوه ودبروه، أي: علموه علماً عن تحقُّق، ويُستعمل مجازاً في علم الأمر وكُنْهه⁽²⁾، فنفي الفعل في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، يدلُّ على أنَّهم لم يعلموه علماً عن تحقُّق، فهم لا يعرفون حقيقته ولا كُنْهه على وجه ما، بل كانت معرفة قاصرة ناقصة، "أي: لم يعرفوه حقَّ معرفته، حيث أنكروا إرساله للرُّسل، وإنزاله للكتب"⁽³⁾.

إيثار التعبير بلفظ الجلالة في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾:

أثر ذكر لفظ الجلالة (الله)، وهو لفظ العلم المستجمع لصفات الكمال⁽⁴⁾ دون لفظ الربوبية؛ تعظيماً لفضاعة فعلهم، وإظهاراً لقباحته الشديدة؛ إذ إنَّهم جهلوا قَدَرَ الإله الجليل العظيم الذي لا ينبغي أن يُجهَلَ شأنه ﷻ.

سرُّ إضافة الحقِّ إلى القَدَر في قوله: ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾:

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، أضاف الحقَّ إلى

مَنْ أَنْكَرَ الْإِنْزَالَ
وَالْإِرْسَالَ؛ فَمَا
عَرَفَ قَدَرَ اللَّهِ
ذِي الْجَلَالِ

مَنْ جَهَلَ قَدَرَ
الْإِلَهِ الْجَلِيلِ؛
فَطَعَّ فِعْلُهُ،
وَضَلَّ اعْتِقَادُهُ

بَيَانُ نَفْيِ
مَعْرِفَتِهِمْ قَدَرَ
اللَّهِ تَعَالَى مِنْ
الْأَصْلِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2585.

(2) الرَّاغِب، المفردات: (قدر)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/362.

(3) الشَّوْكَانِي، فتح القدير: 2/158.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/184.

الْقَدْرَ، وانتصب على أنه مفعولٌ مطلق⁽¹⁾، "وهو في الأصل صفةٌ للمصدر، أي: قَدَرَهُ الحقُّ، فلَمَّا أُضِيفَ إلى موصوفه؛ انتصب على ما كان ينتصبُ عليه موصوفه، أي: ما عرفوه تعالى حقَّ معرفته في اللُّطف بعباده والرَّحمة عليهم، ولم يراعوا حقوقه تعالى في ذلك، بل أخلُّوا بها إخلالاً"⁽²⁾. فالإضافة جاءت تأكيداً لبيان قَدَره الرَّفيع ﷻ، وتفظيلاً لجهلهم بذلك، فلو قال: (ما قدروا الله قَدَرَهُ الحقُّ)؛ لكان المفهوم أنه عرفوا قدرًا آخر، ولكنَّه نفى معرفتهم حقيقة قدره على وجه التأكيد والقطع، بأنَّهم لا يعرفون قَدَرَ الله تعالى من الأصل.

بلغة جناس الاشتقاق في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾:

جاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، لفظان: ﴿قَدَرُوا﴾، و﴿قَدْرِهِ﴾ من جذر واحد، وهو (قدر)، وهذا جناس اشتقاقِيٌّ، وفائدته: أنه يخلعُ على العبارة جمالاً لفظياً، مع فائدة معنوية غاية في الأهمية: إذ إنه ينبِّه السَّامعَ على أهمية هذا اللفظ في سياق الآية، فالتكرارُ على مستوى الجذر، يدلُّ على مزيد الاهتمام باللفظ للتأكيد عليه.

دلالة ظرف الزَّمان في قوله: ﴿إِذْ قَالُوا﴾:

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، إخبارٌ بأنَّ جهلهم بقدرِ الله تعالى كان في وقتِ قولهم ذلك؛ للدلالة على أنَّ أحدًا لا يقولُ ذلك إلا إذا كان في غاية الجهل، فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ "ظرفٌ، أي: ما قَدَرُوهُ حين قالوا: ما أنزل الله؛ لأنَّهم لما نفوا شأنًا عظيمًا من شؤون الله، وهو شأنُ هديه النَّاسِ، وإبلاغهم مراده بواسطة الرُّسل؛ قد جهلوا ما يُفضي إلى الجهل بصفة من صفاتِ الله تعالى التي هي صفة الكلام، وجَهِلوا رحمته للنَّاس ولطفه بهم"⁽³⁾.

تنبيه السَّامع
بتكرار اللفظ، أو
أحد مشتقاته

بلوغ المنكرين
أعلى مقامات
الجهل، عند
إنكارهم الإنزال
على بشرٍ

(1) ابن عطية، للحرر الوجيز: 2/320، والتسفي، مدارك التنزيل: 1/521.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/161، وينظر: أبو حيان، البحر الحيط: 4/580.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/362 - 363.

الإيماء إلى شِدَّةِ
رُسُوخِ المَذْكُورِينَ
في الكُفْرِ

بلادةٌ ذَكَرَ فِعْلَ القَوْلِ دُونَ الرَّعْمِ أَوْ التَّكْذِيبِ:

في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، عبَّرَ بفعلِ القَوْلِ دُونَ (زعم) وغيره؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُمْ قَالُوا ذلك على وجه اليقين الذي هم عليه، وفي ذلك دلالةٌ على قوَّةِ اعتقادهم بذلك، وفيه إشارةٌ إلى رسوخهم في الكفر، وشرُّ النَّاسِ هم الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ في الحياة الدُّنْيَا، وهم يحسبون أَنَّهُمْ يحسنون صنْعًا، وضلال الوجهة مع التَّصَلُّبِ في التَّشَبُّثِ بها، من أكبر الآفات التي تصيب الأفراد، وتُهْلِكُ المجتمعات.

وَجْهٌ إِسْنَادِ القَوْلِ إِلَى الجَمِيعِ، وَإِنَّمَا قَالَهُ بَعْضُهُمْ:

أَسْنَدَ القَوْلَ إِلَى جميعهم، فقال جُلُّ شَأْنُهُ: ﴿إِذْ قَالُوا﴾، وَإِنَّمَا قاله بعضهم، لم يَقُلْ: (إِذْ قَالَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، أَوْ: إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ، أَوْ: كَثِيرٌ مِنْهُمْ)؛ "لأنَّهم لم يردُّوا على قائله، ولم يُعَاجِلُوهُ بالأخذ، تفضيلاً للشَّأن وتحويلاً للأمر، وبياناً؛ لأنَّه يجب على كُلِّ من سمع بآية من آيات الله: أن يسعى إليها، ويتعرَّفَ أمرها، فإذا تحقَّقه، فمن طعن فيها؛ أُخِذَ على يده، بما تصل إليه قدرته"⁽¹⁾.

دَلَالَةُ عَوْدِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدَرُوا﴾ وَ﴿قَالُوا﴾ إِلَى الكَافِرِينَ أَوْ اليَهُودِ:

اختلف أئمَّةُ التفسيرِ في مرجع الضَّمِيرِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا﴾، فَمِنْهُمْ من جعله للمُشْرِكِينَ، ومنهم من جعله عائداً لليهودِ حكايةً لقول بعضهم؛ فَصَحَّ مرجع الضَّمِيرِ لليهودِ ولمشركي العرب؛ لأنَّ "نظم الآية صالح للردِّ على كلا الفريقين"⁽²⁾، لتحقق المناسبة مع الآيات السابقة، فأما مرجعُهم للمُشْرِكِينَ، فلمناسبة قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾، واسم الإشارة لكفار قريش، وأما مرجعُهم لليهود، فلمناسبة قوله تعالى:

الشُّكُوتُ على
الأباطيلِ ضُلُوعُ
في الفسادِ
والتَّضَلُّيلِ

أُنْزِلَ الضَّمِيرُ
الرَّابِطُ فِي مَتَانَةٍ
نُظِمَ الْآيَةُ وَقُوَّةُ
سَبْكِهَا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/185، وينظر القنوي، حاشية على البيضاوي: 8/189.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/367.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الأنعام: 89]، فلذلك جازَ في الضمير في الفعل، ﴿قَدَرُوا﴾ أن يعودَ لأكثر من مرجع⁽¹⁾، فنصُّ الآية منسبكٌ في سياقه، والإحالة في كلِّ حالٍ تحقُّقُ التَّنَاسُبِ ومِثَالَةُ النَّظْمِ.

دلالة إسناد الإنزال إلى الله تعالى في قوله: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾:

أخبرَ تعالى عن نَفْيِهِمُ الْوَحْيِ بقوله: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، فأسندَ الإنزالَ لَعَلَمِ الْجَلَالَةِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا "ناسين ما له من صفات الكمال"⁽²⁾، وهذا متناسبٌ مع جهلهم العظيم الَّذِي بَيَّنَّتْهُ الآية؛ لِأَنَّ "من نسب ملكًا تامَّ الملك، إلى أَنَّهُ لَمْ يُثَبِّتْ أَوَامِرَهُ فِي رِعْيَتِهِ، بما يرضيه ليفعلوه، وما يسخطه ليجتنبوه؛ فقد نسبَهُ إِلَى نقصٍ عظيم"⁽³⁾، وأنكروا ذلك مبالغَةً وتأكيدًا لنفي نزولِ القرآن، ونبوَّة محمد⁽⁴⁾، و"إنكارًا منهم لرحمته؛ لِأَنَّ بَعَثَةَ الرُّسُلِ مِنْ جَلَائِلِ نِعْمَتِهِ، وَعِظَائِمِ رَأْفَتِهِ"⁽⁵⁾.

نفي الإنزال
للوحي كُشْفَ
للقصد من
إنكارهم نزولِ
القرآن

سرُّ التعبير بقوله: ﴿بَشَرٍ﴾، والعدول عن (أحدٍ) أو (رسولٍ) أو (إنسانٍ):

عَبَّرَ بلفظِ الْبَشَرِ دُونَ (إنسان) وغيره؛ لِأَنَّهُمْ اسْتَعْمَلُوا هَذَا اللَّفْظَ تَقْلِيلًا مِنْ شَأْنِ الْأَنْبِيَاءِ؛ إِذْ يَلَاخِظُ فِي لَفْظِ الْبَشَرِ جُثَّتُهُ دُونَ إِنْسَانِيَّتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّحَضُّرِ، فَقَصَدُوا مِنْ ذَلِكَ تَجْرِيدَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ فُضَائِلِهِمْ وَامْتِيَازِهِمْ، وَ"من عرف الله حقيقةً، وأدرك ما يجب في حقِّه، وما يستحيل، وما يجوز، لا يسعُهُ إِلَّا أَنْ يَعْتَرِفَ بِالرُّسَالَةِ وَالسَّفَارَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْخَالِقِ - ﷻ - فَالله لا يَحْدُهُ مَكَانٌ، وَلَيْسَ لَهُ زَمَانٌ، وَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْحَوَادِثِ، يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يَخَاطَبَ الْبَشَرَ

لفظُ الْبَشَرِ يَعْبُرُ
عَنِ الْإِنْسَانِ
باعتبارِ الْجِسْمِ
مَجَرَّدًا عَنِ
المعاني الْفَاضِلَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 361/7 - 362.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/184.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/185.

(4) الرَّمْضَشَرِيُّ، الكشاف: 2/44، وأبو حَتَّان، البحر للحيط: 4/580، وابن جزي، التسهيل: 1/268،

والتَّبَسَّابُورِيُّ، غرائب القرآن: 3/118، والسَّهَابُ، عناية القاضي: 4/93.

(5) الطَّبَّيِّ، فتوح الغيب: 6/157، وينظر: السَّهَابُ، عناية القاضي: 4/92.

مباشرة: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: 51]، ثم يُفَضِّي الرُّسُولُ إلى الخلق بالتَّعْلِيمَاتِ الإِلَهِيَّةِ، فمن أنكر الرُّسَالَه؛ ما قَدَّرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ، ولا عَظَّمَهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، بل ما عرفه أصلاً⁽¹⁾.

دخول ﴿مِنْ﴾ على النُّكْرَةِ في سياقِ النَّفْيِ في قوله: ﴿عَلَى بَشَرٍ﴾:

فائدة المبالغة
في النَّفْيِ
واستغراقه لكل
ما أنزل

من أصولِ التَّعبيرِ في العربيَّةِ أَنَّ "النُّكْرَةَ في موضعِ النَّفْيِ تفيد العمومَ"⁽²⁾، فعَبَّرَ بذلك عن نفْيهِم الوحيَ من الأصلِ، فتنفوا رسالاتِ الأنبياءِ جميعاً، فقولُهُم هذا "يَعْمُ جميعَ البشرِ؛ لوقوعِ النُّكْرَةِ في سياقِ النَّفْيِ لنفيِ الجنسِ، ويعْمُ جميعُ ما أنزلَ باقتِرانه بـ ﴿مِنْ﴾ في حيزِ النَّفْيِ، للدَّلالةِ على استغراقِ الجنسِ أيضاً، ويعْمُ إنزالُ الله تعالى الوحيَ على البشرِ، بنفيِ المتعلِّقِ بهذينِ العمومينِ"⁽³⁾، وهذا يتناسب مع نفي معرفتهم قَدَرَ اللهِ تعالى؛ إذ هم لم يكفروا بنبوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وحسب، بل بجميعِ الأنبياءِ، فهو كُفْرٌ عَظِيمٌ، وجَهِلٌ شَنِيعٌ؛ إذ يثبتون اللَّعِبَ والعبَثَ في الخَلْقِ، ويسلبونه القصدَ الشَّريفَ، والحكمةَ الرَّفِيعَةَ.

فائدة تنكير ﴿شَيْءٍ﴾ للعمومِ مع أنَّه في السَّيَاقِ دالٌّ على الخصوص:

دلالة نفْيهِم
إنزالِ أيِّ لَوْنٍ من
الوحي، مهما
كان نوعُهُ أو
حجمُهُ

قوله جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾، عَبَّرَ بصيغة التَّنْكِيرِ في ﴿شَيْءٍ﴾، الدَّالَّةِ على العمومِ، مع أَنَّ المراد به "هنا شيءٌ من الوحي"⁽⁴⁾؛ للدَّلالةِ على تعميمِ النَّفْيِ في المُنْزَلِ، والمُنْزَلُ هو الوحيُّ، فَدَلَّ على نفْيهِم الوحيَّ، وأنَّه لم ينزل منه ولو كلمة واحدة.

سُرُّ العدولِ عن لَفْظِ (كتاب)، أو (رسالة) إلى قوله: ﴿شَيْءٍ﴾:

في قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾، حكى

(1) الحجازي، التفسير الواضح، ص: 639.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 13/62.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/363.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/363.

قولهم بنفي أن يكون الله تعالى قد أنزل شيئاً، فعدّلوا عن نفي نزول كتاب أو رسالة إلى نفي نزول شيء؛ لأنّهم أرادوا نفي عموم الإنزال، فالله تعالى بزعمهم لم يُنزل شيئاً، مهما قلّ وقصّر.

بلادة فصل: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ عمّا قبلها:

جاء قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ مفصّلاً عن قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، لكمال الانقطاع بينهما؛ إذ هما مختلفتان اختلافاً تاماً، فالجملة الثانية إنشاء، والأولى خبر، والفصل بينهما مقتضى الاختلاف بين الأسلوب، والمعنى قل لهؤلاء الكفرة الجاحدين.

دلالة التعبير بالقول دون إلقاء السؤال مباشرة:

في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ أمر تعالى نبيه ﷺ "أن يستفهم على جهة التقرير على موضع الحجّة"⁽¹⁾، دون أن يأتي الكلام بطريق الاستفهام المباشر، كأن يقول: (قالوا: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء، فمن أنزل؟)، تأكيداً للمضمون المُفحّم لهم؛ فلذا "افتتح بالأمر بالقول، للاهتمام بهذا الإفحام، وإلا فإن القرآن كلّهُ مأمورُ النَّبِيِّ ﷺ بأن يقولهُ"⁽²⁾.

دلالة الاستفهام وغرضه في قوله: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾:

أمر الله تعالى النَّبِيَّ ﷺ أن يسألهم عن الذي يعرفونه، وهو كتاب موسى ﷺ، والمراد أنّه يلزمهم "بما لا سبيل لهم في إنكاره أصلاً، حيث قيل: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾؟ أي: قلّ لهم ذلك على طريقة التّكييت وإقام الحجر"⁽³⁾، فالاستفهام ليس حقيقياً؛ إذ هو سؤال عن معلوم، فهو استفهامٌ تقريريّ، جاء

العدول إلى
(شيء) حكايةً
عن زعمهم أنّه
لم ينزل قليلٌ
ولا كثيرٌ

بين الجملتين
كمال انقطاع
بليغ، فالأولى
خبرٌ والثانية
إنشاء

أهميّة مضمون
هذا القول، مع
كون القرآن
كلّه مناطاً بقول
النبي لقومه

دلّ الاستفهام
على التقرير؛
إلزاماً لهم بما لا
يسعهم إنكاره

(1) ابن عطية، للحرر الوجيز: 2/320، وينظر: التيسابوري، غرائب القرآن: 3/118.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/363، وينظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2585.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/161.

”بطريقة الإلزام؛ لأنهم أظهروا أنَّ رسالة محمد ﷺ كالشيء المحال، فقليل لهم على سبيل التّقرير: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾! ولا يَسْعُهُمْ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: الله، فإذا اعترفوا بذلك، فالذي أنزل على موسى كتابًا، لم لا يُنزل على محمدٍ مثله“⁽¹⁾، وهو الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

سُرُّ العدول عن لفظ (التّوراة) إلى قوله: ﴿الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾، عدل عن التّصريح بالتّوراة، وهو الكتاب الذي جاء به موسى إلى لفظ (الكتاب)؛ لإيقاع الاحتجاج عليهم عند إقرارهم بنزوله؛ لأنّ القرآن كتابٌ أيضًا، فإذا أقرُّوا بنزول الكتاب الذي هو التّوراة، لزمهم الإقرار بنزول كتابٍ آخر، وهو القرآن الكريم.

وجه الاستدلال بإنزال التّوراة على صدق نبوّة محمدٍ ورسالته:

احتجّ السّياق عليهم بكتاب موسى ﷺ: ”لأنّهم كانوا يسمعون من اليهود بالمدينة ذكرَ موسى والتّوراة، وكانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّ أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾“ [الأنعام: 157]⁽²⁾، فكانت التّوراة معروفةً عندهم، حتّى تمنّوا أن يكون لهم كتابهم الخاصُّ بهم، لمفاخرة اليهود ”وإلزامهم إنزال التّوراة، لما أنّه كان عندهم من المشاهير الذّائعة“⁽³⁾، فلمّا كان ذلك كذلك؛ فإنّ ”الاحتجاج عليهم واضحٌ؛ لأنّهم ملتزمون بنزول الكتاب على موسى“⁽⁴⁾.

إيثار التّعبير بجملة: ﴿جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ في السّياق:

آثر النّظم القرآنيّ التّعبير عن الوحي المنزل إلى موسى بقوله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/367.

(2) الرّمخشري، الكشّاف: 2/44.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 3/161.

(4) أبو حيان، البحر للحيط: 4/580.

الإقرار بنزول
كتاب التّوراة
السّابق حجّة
لنزول كتاب
القرآن اللاحق

لما كانوا يتمنّون
كتابًا أهدى من
التّوراة؛ ألزمهم
بالإقرار به

في إيثار المجيء
على النّزول
تطريّةً للدّفن،
لورود النّزول في
صدر الآية

تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ بالمجيء؛ لأنَّ لفظ النُّزول قد ذُكِرَ في صدرِ العبارة، فاكتفى به، ثمَّ أثر لفظ المجيء؛ لأنَّ موسى ﷺ نزلت عليه الألواح في مكانٍ غير مكان قومه، فجاءهم بالكتاب تامًّا.

دلالة تخصيص التَّوارة بالذكر في قوله: ﴿الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾:

جاء التَّقريرُ في الآية والاحتجاج بذكر نزولِ التَّوارة على موسى ﷺ، دون غيره لتواترِ ذِكْرِ موسى في بلاد العرب وشهرته؛ لأنَّ "اليهود يتردّدون على مَكَّة في التَّجَارَةِ وغيرها، وأهل مكة يتردّدون على يثرب وما حولها، وفيها اليهود وأخبارهم، وبهذا لم يُذكَرْهم الله برسالة إبراهيم ﷺ؛ لأنَّهم كانوا يجهلون أنَّ الله أنزل عليه صُحُفًا، فربَّما يتطرَّقه اختلاف في كَيْفِيَّةِ رسالته ونبوءته"⁽¹⁾، فكان ذكرُ موسى أقوى في الاحتجاج عليهم لاتِّضاح ذلك عندهم وشهرته.

بلاغة استعارة النور للوضوح والبيان في الكتب المنزلة:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾، عبَّرَ عن الحال التي نزلت بها التَّوارة، بأنَّها نورٌ؛ إذ "النُّور استعارة للوضوح والحقُّ، فإنَّ الحقَّ يُشَبَّه بالنور، كما يُشَبَّه الباطل بالظلمة"⁽²⁾، وهذا شاملٌ لكلِّ ما أوحى الله تعالى به؛ إذ الرِّسالات الموحى بها إنَّما جاءت للهداية والبيان، وهذا هو عينُ فائدة النور.

دلالة بيان حال الكتاب بأنَّه ﴿جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهْدَى لِلنَّاسِ﴾:

بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الكتابَ الَّذِي أُنْزِلَ على موسى، إنَّما نزلَ في حالة البيان والتَّبيين، فإنَّ "كونه بيِّنًا بنفسه ومبيِّنًا لغيره، ممَّا يؤكِّد الإلزام أيَّ تأكيد، وانتصابهما على الحالِية"⁽³⁾، فدَلَّ الحال ذلك

ذَكَرُ التَّوارة
لمعرفة أهل مَكَّة
بها، وشهرتها
عندهم

التَّعبيرُ عن
الوحي المنزَّل بأنَّه
نورٌ لوضوحه
وهدايته
إلى الصَّراطِ
المستقيم

وضوح الوحي
وإعجازه يشهدُ
أنَّ الكتابَ من
الله تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/363.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/363.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/161.

على أَنَّهُمْ لا يقدرونَ على الإنكار؛ "لأنَّ الكتابَ الموصوفَ بالنُّور والهُدَى الآتي به مَنْ أُيِّدَ بالمعجزات؛ بلغت دلالته من الوضوح إلى حيث يجب أن يُعترف بأنَّ مُنزلَه هو الله، سواء أقرَّ الخصمُ بها أم لم يُقرَّ"⁽¹⁾، فلمَّا ألزمهم بتقريرهم بإنزال الكتاب الذي جاء به موسى ﷺ أقرَّنه بدليل كونه من الله تعالى تأكيداً للإلزام.

دلالة الجمع بين النور والهدى في قوله: ﴿نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾:

لا يخفى أنَّ صفة النُّور تدلُّ على الهداية، وظاهرُ هذا يدلُّ على أنَّه قد جُمع بين وصفين لمعنى واحد، وهذا لا يليقُ بالكلام البليغ، وفي ذلك يقول الفخر الرَّازي: "واعلم أنَّه تعالى سَمَّاهُ نُورًا تشبيهاً له بالنُّور الذي به يبيِّن الطُّريق، فإن قالوا: فعلى هذا التفسير لا يبقى بين كونه نُورًا، وبين كونه هُدًى للنَّاسِ فَرْقٌ، وعطفُ أحدهما على الآخر، يوجبُ التَّغايرَ؛ قلنا: النُّور له صفتان: إحداهُما: كونهُ في نفسه ظاهراً جلياً، والثَّانية: كونه بحيث يكون سبباً لظهور غيره، فالمراد من كونه نُورًا وهُدًى هذان الأمران"⁽²⁾، فجَمَعَ بين الوصفين للدلالة على كونه "بيِّناً واضحاً كالنُّور في تكليفاته ومعانيه، ليكون مصدرَ الهدى للنَّاسِ، يعلمون التَّكليفات والعقائد السَّليمة منه"⁽³⁾.

دلالة لام التعريف في لفظ (النَّاس) في قوله: ﴿نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾:

تدلُّ كلمة (النَّاس) على جميع أفراد الإنسان، وقد يتقيَّد بصفة واحدة منهم بحسب السِّياق، وفي هذه الآية ليس هو على الإطلاق، بل "المرادُ بالنَّاسِ اليهودُ، أي: ليهديهم، فالتعريف فيه للاستغراق، إلَّا أنَّه استغراقٌ عرفيٌّ، أي: النَّاسُ الَّذِينَ هم قومه بنو إسرائيل"⁽⁴⁾، أي: هو هُدًى للنَّاسِ المخاطبين به، وهم بنو إسرائيل.

النُّور يزيدُ على
الهُدَى، كونه
ظاهراً في نفسه،
وهادياً للحقِّ

النَّاسُ في
السِّياقِ مَنْ
أُرْسِلَ إليهم
موسى فقط

(1) أبو حنَّان، البحر المحيط: 4/582، وينظر: الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 13/64.

(2) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 13/62 - 63.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2585، وينظر: القُتُوبِي، فتح البيان: 4/191.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/364.

بلاغة الاستئناف في قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾:

الجملة في قوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ استئنافية سبقت لبيان ضلالهم في سلوكهم مع الكتاب الذي جاءهم بالنور والهدى: "لأن كونه نورًا وهدىً موجبٌ لأن يجعل ذريعةً إلى التخلص من ظلمات الجهالات، ووسيلةً إلى النجاة من ورطات الكفر والضلالات، فعكسوا، وحَقَرُوهُ، حيث جعلوه ذا قراطيسٍ مقطَّعةٍ، وورقاتٍ مفرَّقةٍ، وبَعْضُوهُ، فأخفوا ما أرادوا، وأبدوا ما اشتهوهُ، لِيَضِلُّوا وَيُضِلُّوا"⁽¹⁾.

بلاغة الإدماج في قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾:

بدأ الخطاب في صدر الآية مع المشركين الذين نفوا إنزال الوحي من حيث الأصل، ثم انتقل الخطاب إلى اليهود، فالخطاب في قوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ "لغير المشركين إذ الظاهر أن ليس لهم عمل في الكتاب الذي أنزل على موسى، ولا باشروا إبداء بعضه وإخفاء بعضه؛ فتعين أن يكون خطاباً لليهود على طريقة الإدماج⁽²⁾، أي: الخروج من خطاب إلى غيره؛ تعريضاً باليهود، وإسماعاً لهم، وإن لم يكونوا حاضرين من باب: إياك أعني، واسمعي يا جارة"⁽³⁾.

وجه ذم جعلهم الكتاب قراطيس في قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾:

ذمهم الله تعالى بجعلهم الكتاب قراطيس، ولا وجه للذم بذلك، فما مقصد القرآن الكريم بزمهم بهذا الفعل؟ وفي بيان ذلك قال الفخر الرازي: "فإن قيل: إن كل كتاب فلا بد وأن يودع

بيان ضال
اليهود في عدم
الانتفاع بنور
الكتاب وهدايته

الخروج من
خطاب المشركين
إلى خطاب
اليهود تعريض
بهم

تجزئة الكتاب
كانت بقصد
كتمان بعضه،
فدُمُوا لذلك

(1) الطيبي فتوح الغيب: 160 - 6/159.

(2) الإدماج هو "أن يجعل التكلم الكلام الذي سبق لمعنى متضمناً لمعنى آخر، فالمعنى الآخر ملفوف في الكلام". يُنظر: الدسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 4/136، أو هو "إدخال فكرة في فكرة، أو غرض بلاغي في غرض آخر، أو وجه من وجوه التبديع في وجه منه آخر، بأسلوب من الكلام لا يظهر منه إلا إحداهما الفكرتين، أو أخذ الغرضين، أو أخذ الوجهين، فإذا تأمل التفكر ظهر له اللدمج وسرته هذا الإدماج"، يُنظر: الأبياري، اللوسوعة القرآنية: 2/261.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/364، وينظر: الطيبي، فتوح الغيب: 6/159.

في القراطيس، فإذا كان الأمر كذلك في كل الكتب، فما السبب في أن حكى الله تعالى هذا المعنى في معرض الذم لهم؟ قلنا: الذم لم يقع على هذا المعنى فقط، بل المراد أنهم لما جعلوه قراطيس، وفرّقوه وبغّضوه، لا جرم قدّروا على إبداء البعض، وإخفاء البعض، وهو الذي فيه صفة محمد ﷺ⁽¹⁾، فالمذموم ليس جعله قراطيس، ولكن ما كانوا يقصدون من ذلك: فإنهم جعلوه كذلك "ليتّم لهم ما يريدونه من التحريف والتبديل والإبداء والإخفاء وكنتم صفة النبي المذكورة فيه، وهذا ذمّ لهم"⁽²⁾، ووجه الذمّ أنّه وبّخهم على جهلهم بالتّوّارة، وما قاموا به من تجزئتها لإبداء بعض انتخبوه، وإخفاء ما لا يشتهونه⁽³⁾.

فائدة وصف القراطيس بجمليتي: «تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا»:

قوله جلّ شأنه: «قَرَاتِيسٌ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا»، فيه وصف القراطيس بالجملتين: «تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا»، وفهم من هذه الصّفة علّة جعلهم الكتاب قراطيس، أي: "تجعلونه قراطيس، لغرض إبداء بعض، وإخفاء بعض"⁽⁴⁾، وفي هذا الوصف ذمّ لهم، وتوبيخ على إخفائهم نعت النبي ﷺ⁽⁵⁾، ففائدة هذا الوصف أنّه أظهر قصدهم، من جعلهم التّوّارة قراطيس، وهي الإبداء والإخفاء تبعاً للأهواء، وذكر الإبداء في سياق الذمّ - والإبداء لا ذمّ عليه - إعلاماً بأنهم كانوا مقتدرين على الإبداء، ولكنهم انتقوا ما يُبدون، وهذا يبيّن قصدهم إخفاء ما أخفوا، فظهر أنّ ذكر الإبداء فيه تأكيد على قصدهم إخفاء ما أخفوا.

علّة جعلهم
الكتاب
قراطيس، غايته
الإعلام بقصد
تضليل الناس

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 13/63، وينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/365.

(2) القنوجي، فتح البيان: 4/191، وينظر: الزّمخشري، الكشاف: 2/44، والسفي، مدارك التنزيل:

1/521.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/172.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/365.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/321، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/38.

نكتة إطلاق الإبداء، وتقييد الإخفاء بالكثرة:

في قوله تعالى: ﴿قَرَأْتِيسَ تَبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ جاء وصف الكثرة قيداً مع الإخفاء دون الإبداء؛ للنص على أن ما أخفوه كان كثيراً، ولأن السياق في ذمهم، فهو يتجه للذم على الإخفاء والتلاعب بالنص المقدس، فكان هو الأخرى بوصف الكثرة؛ للنص على أن ما أخفوه كثير، وما أبدوه هو كثير بالضرورة، ولكنه لا يقتضي مدحاً ولا ذمّاً؛ إذ هو الواجب المنوط بهم، فهو لا يتأثر بالكثرة والقلّة، فأطلقه.

علة تقديم عبارة ﴿تَبْدُونَهَا﴾ على عبارة ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾:

قدّم الإبداء على الإخفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأْتِيسَ تَبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾؛ لأنه لما ذمهم بجعل الكتاب قراطيس - وهذا الجعل ليس ذمّاً بحدّ ذاته - فكان السامع ينتظر صفة الذم، ثم ذكر الإبداء، وهو ليس ذمّاً، فيتطلع السامع بترقب إلى معرفة تلك الصفة التي جاء السياق لبيانها، ثم يذكرها آخرًا، لتقع أبلغ موقع في أذن السامع، تهويلاً لشأن ذلك الإخفاء، وقدّم الإبداء اعتباراً بالأصل؛ إذ نشر تعاليم الكتاب هو الأصل، ولأن ما يراد إخفاؤه يجعل آخرًا؛ إذ التأخير أنسب بالإخفاء، والتقديم أنسب بالإظهار والإعلان، والغرض تهويل المؤخر.

بلغة الطباق بين لفظي: ﴿تَبْدُونَهَا﴾ و﴿وَتُخْفُونَ﴾:

قوله جلّ شأنه: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأْتِيسَ تَبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ طباق إيجاب؛ حيث جمع بين فعلين متضادين مثبتين، وفائدة الطباق تكمن في إثارة انتباه السامع للخطاب، وفيه زيادة في بيان المعنى؛ إذ بضدها تتميز الأشياء، وذلك أظهر للمعنى الذي يقصده النص؛ فإذا أدرك السامع فضيلة إعلان الكتاب وإبدائه، فإنه سيقع ضده في ذهنه، بأشد ما يكون التمكن، وفي ذلك إعلامٌ بقباحة ما قاموا به من الإخفاء.

ما أخفوه هو
المقصود بالذم،
وتقييده بالكثرة
ينص على أنه
كثير

تقديم الإبداء
على الذم،
يستجلب ترقب
الصفة المقصودة
في السياق

طباق الإيجاب
يوكد على ذكر
الفعل القبيح
بعد الفعل
الحسن

الالتفات
بإنزال الخطاب
منزلة الغائب
تبعيداً له لقبح
أفعالهم

الدلالة على
سعة امتنانه
على بني
إسرائيل، وكثير
نعمائه عليهم

أهميّة البناء
للمفعول للعلم
بالفاعل بغاية
الإيجاز

توجيه القراءة بصيغة الغيبة في الألفاظ: (يجعلونه، يبدونها، يخفون):

قرأ ابن كثير وأبو عمرو (يجعلونه) (يبدونها ويخفون) بالياء على الغيبة⁽¹⁾، والقراءة بصيغة الغيبة إذا كان المراد بهم بني إسرائيل، فهو لمناسبة الفعلين السابقين: (قالوا، قدروا)⁽²⁾، وفيه "التفات تبعيداً لهم - بسبب ارتكابهم القبيح - عن ساحة الخطاب؛ ولذا خاطبهم حيث نسب إليهم الحسن في قوله: ﴿وَعَلَّمْتُمْ﴾، وهذا من عيون اللطائف في الالتفات"⁽³⁾.

بلاغة العطف بين: ﴿أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾، ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ معطوف على الجملة في قوله: ﴿أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾؛ لأنه "خطاب لبني إسرائيل مقصود به الامتنان عليهم وعلى آبائهم، بأنّ علّموا من دين الله وهدايته ما لم يكونوا عالمين به"⁽⁴⁾.

دلالة بناء الفعل للمجهول في قوله: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾:

عبّر بالفعل المجهول إيجازاً في التعبير، فوجه "بناء فعل ﴿وَعَلَّمْتُمْ﴾ للمجهول ظهور الفاعل، ولأنّه سيَقول: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾"⁽⁵⁾، فالفاعل سيظهر في الجواب المذكور لاحقاً، فحذفه أولاً للإيجاز. وعند ابن عطية الغرناطي: "قوله: وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا، يصلح على هذا المعنى لمخاطبة من انتفع بالتعليم، ومن لم ينتفع به، ويصح الامتنان بتعليم الصّنفين، وليس من شرط من علّم أن يعلم ولا بدّ، أما إنّ التعليم الكامل هو الذي يقع معه التعلّم. وقالت فرقة:

(1) ابن مجاهد، السبعة، ص: 262، وابن الجزي، النشر: 2/260.

(2) الشهاب، غناية القاضي: 4/93.

(3) الشهاب، غناية القاضي: 4/93.

(4) أبو حيان، البحر للحيط: 4/581.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/367.

بَلْ هِيَ مُخَاطَبَةٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْمَعْنَى - عَلَى هَذَا - يَتَرْتَّبُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يُقْصَدَ بِهِ الْإِمْتِنَانُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى آبَائِهِمْ؛ بِأَنْ عُلِّمُوا مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُدَايَاتِهِ مَا لَمْ يَكُونُوا عَالِمِينَ بِهِ؛ لِأَنَّ آبَاءَ الْمُخَاطَبِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا عُلِّمُوا - أَيْضًا - وَعَلِمَ بَعْضُهُمْ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي آبَاءِ الْعَرَبِ. وَالْوَجْهُ الْآخَرُ أَنْ يَكُونَ الْمَقْصُودُ ذَمُّهُمْ؛ أَيْ: "وَعُلِّمْتُمْ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوهُ بَعْدَ التَّعْلِيمِ؛ وَلَا انْتَفَعْتُمْ بِهِ؛ لِإِعْرَاضِكُمْ وَضَلَالِكُمْ"⁽¹⁾.

بلادة الالتفات في قوله: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو الأفعال الثلاثة بياء الغيبة: (يجعلونها، يبدونها، يخفون)، وضمير الجمع لليهود أيضًا، فخاطبهم بالغيبة تبعيدًا لهم - بسبب ارتكابهم القبيح - عن ساحة الخطاب، ولما أراد أن ينسب إليهم الحُسن في قوله سبحانه: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾⁽²⁾ التفت عن الغيبة إلى الخطاب، ففي الالتفات بيان للفرق بين المنزلتين، فالتعبير بالغيبة في الأفعال: (يجعلونها، يبدونها، يخفون)، إشارة لتبعيدهم لقباحة تلك الأفعال، والتعبير بالخطاب يدخل في سياق تعليمهم لحسن هذه المنزلة.

إيثار التعبير بـ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾:

في قوله سبحانه: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾، عبّر عما عُلِّمُوهُ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ الدال على العموم والإبهام، تعميمًا لكل شيء عُلِّمُوهُ؛ تعبيرًا عن كثرة التعليم، وتفضيمًا له، وفي ذلك زيادة في الامتنان، والمعنى: (وَعُلِّمْتُمْ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ)، زيادة على ما في التوراة، وبيانًا لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم،

الخطاب بالغيبة
تبعيد لهم، وفي
الالتفات تبريز
للمنزلة التعليم

الدلالة على
كثرة ما عُلِّمُوهُ،
وإظهار مزيد
الامتنان لما أوتوه

(1) ابن عطية الغرناطي، للحرر الوجيز: 2/321.

(2) الألوسي، روح المعاني: 4/208.

ونظيره ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: 76] (1).

بلادة الجنس الناقص بين عبارتي: ﴿وَعَلِمْتُمْ﴾ و﴿تَعَلَّمُوا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعَلَّمُوا﴾ جناس ناقص بين اللفظين: ﴿وَعَلِمْتُمْ﴾، و﴿تَعَلَّمُوا﴾، وفائدة ذلك: أنه يكسو العبارة جمالاً لفظياً، مع فائدة أخرى وهي تنبيه السامع على أهمية اللفظ المكرر؛ تصريحاً بمكانة العلم، وكونه ممّا يُمنُّ الإنعامُ به، والمعنى "على تقدير جعل الخطاب لليهود: (وَعَلِمْتُمْ بما أنزلَ على خاتم النبيين، ما لَمْ تَعَلَّمُوا أَنْتُمْ ولا آباؤُكُمْ الَّذِينَ كَانُوا أَعْلَمَ وأهدى مِنْكُمْ)، فَمِنْ ذَلِكَ مَا أَفَادَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: 76]" (2).

فائدة الضمير المنفصل (أنتم) ودلالة عطف قوله: ﴿وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾:

في قوله سبحانه: ﴿وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعَلَّمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾، دلّ إظهار الضمير على تأكيد وقوع التعليم للمخاطبين، وفيه دلالة على استقلالهم بذلك التعليم، فهو تعليمٌ غير تعليم آبائهم، ثم أظهر مزيد الامتنان عليهم بعطف تعليم الآباء على تعليمهم، والمعنى: "هو خطابٌ لهؤلاء المشركين من العرب، فقد جاءهم الرسول الكريم بعلمٍ جديدٍ، أذاعه فيهم، ونشره عليهم، فيما يتصل بالأنبياء، وما ينبغي لها من جلال وتفرّد بالوجود ... وقد عرف المشركون هذا، وكانوا يسمعون، ويرددونه، وإن كانوا لا يؤمنون به" (3).

دلالة التعبير بالقول في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾:

قوله جلّ شأنه: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أمر الله

الحسن البديع
جمال في العبارة
وتنبية لعظمة
العلم وآثاره

أكد تعليمهم
على وجه
الاستقلال، وزاد
الامتنان بعطف
الآباء عليهم

(1) البياضوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 2/172.

(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 7/515.

(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/237.

الأمرُ بمبادَرةِ
الخاطِبِينَ
بالجوابِ، دَلِيلٌ
على امتناعِهِمْ،
لانتفاءِ قُدْرَتِهِمْ

تعالى رسوله ﷺ بأن يجيبهم؛ "إشعارًا بتعيينِ الجوابِ، بحيث لا محيدَ عنه، وإيذانًا بأنَّهم أُفْحَمُوا، ولم يقدروا على التَّكَلُّمِ أصلاً" (1)، فالأمر بالمبادَرةِ بالجوابِ في هذا السِّياقِ، يدلُّ على امتناعِهِمْ، لانتفاءِ قدرَتِهِمْ، كما يرى أبو حَيَّان: "أمرُهُ بالمبادَرةِ إلى الجوابِ، أي: قُلِ اللهُ أنزله، فإنَّهم لا يَقْدِرُونَ أن يُنَاكِروكَ" (2)، أو امتناعِهِمْ لِلْعِنَادِ والمكابرةِ، كما يقول البقاعي: "ولمَّا كانوا قد وصلوا في هذه المقالةِ إلى حدٍّ مِنَ الجهلِ عظيمٍ، قال مشيرًا إلى عِنَادِهِمْ: ﴿قُلِ﴾ أي أنت في الجوابِ عن هذا السُّؤالِ، غيرَ منتظرٍ لجوابِهِمْ، فإنَّهم أَجْلَفُ النَّاسِ وَأَعْتَاهُمْ" (3)، فلم يَنْتَظِرْ جَوَابَهُمْ، بل بادرَ بالجوابِ إظهارًا لِعِنَادِهِمْ، فلمَّا علموا أنَّهم أُفْحِمُوا؛ امتنعوا عن الرَّدِّ. وفيه تعيينٌ للجوابِ بلفظه، فهو "جوابٌ مُتَعَيَّنٌ لا يمكنَ غيرُهُ، وتنبيةٌ على أنَّهم مَبْهُوتُونَ، لا يَقْدِرُونَ على الجوابِ، ولهذا عَقِبَهُ بقوله: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾" (4). وذهب (الشَّهابُ) إلى أنَّ الله تعالى لم يذكر جوابَهُمْ بيانًا لاستكبارِهِمْ عن الحقِّ، فإنَّ "عَدَمَ نقلِ جوابِهِمْ إشارةً إلى أنَّهم يُنْكِرُونَ الحقَّ مكابرةً منهم" (5).

بالغة المبادَرةِ بالجوابِ عن الاستفهامِ التَّقريري:

قوله جَلَّ شأنه: ﴿قُلِ اللهُ﴾، جوابُ الاستفهامِ التَّقريريِّ السَّابِقِ، "وقد تولَّى السَّائلُ الجوابَ لنفسه بنفسه؛ لأنَّ المسْؤُولَ لا يَسْعُهُ إِلَّا أن يجيبَ بذلك؛ لأنَّه لا يَقْدِرُ أن يُكَابِرَ" (6)، فلا جوابَ غيرُهُ، لأنَّه من العلمِ المتَّفَقِ عليه، ولذا جاء السِّياقُ بقوله: "فإذا سألتَهُمْ عَمَّنْ أنزلَ هذا الكتابَ الموصوفَ بتلك الصِّفَاتِ، فأَجِبْ عن هذا السُّؤالِ و﴿قُلِ﴾

الإجابةُ الواحدةُ
المتعيَّنةُ مِنَ
العِلْمِ المتَّفَقِ
عليه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/162.

(2) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 4/582، والتَّسْفِي، مدارك التنزيل: 1/521، والقَوَاجِي، فتح البيان: 4/192.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/187.

(4) الطَّيْبِيُّ، فتوح الغيب: 6/162، وينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/172.

(5) الشَّهاب، عناية القاضِي: 4/94.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/368.

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ، فحينئذٍ يَتَضَحُّ الْحَقُّ، وينجلي مثل الشَّمْسِ، وتقوم عليهم الْحُجَّةُ⁽¹⁾.

نكتة الإيجاز في الجواب في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾:

اقتضاب
الجواب تعجيل
بالفائدة، وحث
على التفكر

أَوْجَزَ ﷻ ذَكَرَ الجواب بكلمة واحدة، هي: "قل لهم: (اللَّهُ) بإيجاز، ولا تزدهم، ليتفكروا أو يتدبروا بما فيه أمرهم، إن كان فيهم عقلٌ غيرُ عايب⁽²⁾"، وإنَّ إلقاء الجواب باقتضابٍ أدلُّ على الحسَم، وفيه تعجيلٌ بالفائدة في سياق الاحتجاج والجدال، إذ إنَّ المجادلة تستوجب الدقَّة والإيجاز في الحديث.

دلالة العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾:

التَّرتيب
الرَّتبِيّ، ودوره
في إلزامهم
بالْحُجَجِ
الدَّامِغَةِ

عَطَفَ الأمر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، بـ ﴿ثُمَّ﴾ ليس للتراخي المُشْعِرِ بطول الفاصل الزمانيِّ بين الأمرين، بل "للدلالة على الترتيب الرتبِيّ، أي: إِنَّهُمْ لَا تَسْجَعُ فِيهِمْ الْحُجَجُ وَالْأَدَلَّةُ، فتركهم وخوضهم بعد التبليغ هو الأولى، ولكنَّ الاحتجاج عليهم لِتَبْكِيَّتِهِمْ، وقطع معاذيرهم"⁽³⁾، والمعنى: "اتركهم يخوضوا في الباطل، ويلعبوا بما لافائدة فيه، حتَّى يلاقوا يومهم الَّذي يوعدون"⁽⁴⁾. وترتيب خطواتِ المحاوِرةِ والمواجهةِ لأقاويلهم ودعائهم، تأتي بالتدرّج؛ رجاء إلزامهم بالحجج الدامغة التي لا يحيرون معها جواباً، ولا يستطيعون من منطقتها وإقناعها فكاً، وتركهم بعد ذلك يخوضون، ويلعبون، لا مندوحة منه، لأنَّه قد أعذر من أنذر، ومن بلغ للمخطئ الصواب؛ تجنَّب بعد ذلك العتاب.

(1) السَّعْدِيّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 264.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2587.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/368.

(4) عبد الرّحمن السَّعْدِيّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام اللّان، ص: 264.

إِثَارُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿ذَرَهُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾:

في قوله جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، عبَّرَ عن تركهم بالفعل المشتقَّ من (وذر) الدَّالُّ على ما لا يُؤْبَهُ بِهِ إِعْلَامًا بقلَّةِ شَأْنِهِمْ، وتأكيدًا لِنَسَبِهِمْ إِلَى ما لَا يَعْتَدُّ بِهِ، تحقيرًا وتوبيخًا لهم، ونصُّ خاتمة هذه الآية، "هو دعوة للنَّبِيِّ أَنْ يُحَدِّثَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ عَنْ اللَّهِ، وَأَنْ يَكْشِفَ لَهُمُ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ، أَي: قُلْ: هَذَا هُوَ اللَّهُ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، فَإِنْ آمَنُوا؛ فَقَدْ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي ضَلَالٍ، يَخْضُونَ فِيهِ خَوْضًا .. فَذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ" (1).

بِلَاغَةِ الْمَجَازِ فِي الْأَمْرِ بِتَرْكِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ﴾:

أمر الله تعالى نبيه ﷺ بِتَرْكِهِمْ؛ مشيرًا لَهُ بِمَا يَنْبَغِي عَلَيْهِ فَعَلُهُ، فقالَ لَهُ: "فَلَا عَلَيْكَ بَعْدَ التَّبْلِيغِ وَالْإِزَامِ الْحُجَّةُ" (2)، فَإِذْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِالاحتِجَاجِ، جَاءَ الْأَمْرُ بِإِهْمَالِهِمْ، إِعْلَامًا بِعَدَمِ انْتِفَاعِهِمْ مِنَ الدَّعْوَةِ، وَلَيْسَ أَمْرًا بِتَرْكِ الدَّعْوَةِ، لَا سِيَّمَا وَأَنَّهُ عَبَّرَ بِالْفِعْلِ (وَذَرَ) الدَّالُّ عَلَى مَا لَا يُؤْبَهُ لَهُ وَلَا يُكْتَرَثُ بِهِ؛ إِذْ مَعْنَى الْفِعْلِ (ذَرَ): "اتْرَكَ، أَي: لَا تُخَالِطْ، وَهُوَ هُنَا مَجَازٌ فِي عَدَمِ الْاهْتِمَامِ بِهِمْ، وَقِلَّةِ الْاِكْتِرَاثِ بِاسْتِهْزَائِهِمْ" (3)، والغرضُ مِنْ ذَلِكَ تحقيرُهم والاستهزاءُ بِهِمْ.

عِلَّةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾:

قَدَّمَ الْجَارَّ وَالْمَجْرُورَ عَلَى الْفِعْلِ، "لِرَعَايَةِ الْفَوَاصِلِ، أَوْ لِلتَّخْصِيسِ، وَإِنَّمَا أَخْرَجَهُ إِذْ التَّهْدِيدُ بِالْأَمْرِ بِتَرْكِهِمْ فِي بَاطِلِهِمْ أَكْدُ وَأَبْلَغُ" (4)، فَتَقْدِيمُ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ أَفَادَ تَخْصِيسَ اللَّعْبِ بِالْخَوْضِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَعِبَهُمْ لَا يُوقِعُونَهُ إِلَّا عَلَى آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ الْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ بِمَحْذُوفٍ، حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ الْمَنْصُوبِ فِي

دلالة الفعل
(ذرهم) على ما
لا يعتدُّ به ولا
يؤبَهُ لَهُ تحقيرًا
لهم

الأمرُ بِتَرْكِهِمْ
بعد البلاغِ
تحقيرُ لهم،
وقِلَّةُ اِكْتِرَاثٍ
بشأنهم

مفادُ تخصيصِ
اللَّعْبِ بِالْخَوْضِ
في آيَاتِ اللَّهِ
تعالى

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/238.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/172.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/295.

(4) القونوي، حاشية على البيضاوي: 8/191.

قوله: ﴿ذَرَهُمْ﴾، ويكون قوله: ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حالاً أخرى مفسّرةً له، أو خبراً لمبتدأٍ محذوفٍ؛ تعليلاً لفعل الأمر ﴿ذَرَهُمْ﴾ أي: فهم يلعبون⁽¹⁾.

دلالة إضافة المصدر إلى فاعله في قوله: ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾:

بيان مظهر
الشقاوة في
الخوض المذموم
واللعب المأفون

أضافَ الخَوْضَ إليهم، ولم يُقَلَّ: (ثمَّ ذرهم في الخوض يلعبون)؛ إيماءً إلى أنّه خَوْضٌ خاصٌّ بهم، قد شُهرُوا به، حتّى صاروا يُعرَفُونَ به، ويُعرَفَ بهم، وهذا دليل شقاوتهم؛ فإنَّ الجرأة على الخوض في آياتِ الله تعالى ودينه، لا يتورّطُ فيها غيرُ الذين مرَدوا على اجتراحِ السيِّئاتِ، وأنسوها في الخلواتِ والجلواتِ.

دلالة الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، وبيان متعلّقه:

تركُّبُهُمْ مُهْمَلِينَ
في خَوْضِهِمْ،
هوأنّ وتحقيرُ
شأنِهِمْ

أجاز بعضُ أئمّةِ التفسير - منهم الرّمخشري⁽²⁾ - في الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾: أن يكون مُتَعَلِّقًا بـ ﴿يَلْعَبُونَ﴾ الآتي، وَمَنَعَهُ آخرون - منهم الألوسي⁽³⁾ -، لأنّه يؤدّي إلى فسادِ المعنى، والرّاجح أن يتعلّق بـ ﴿ذَرَهُمْ﴾⁽⁴⁾، كما يجوز أن يتعلّق بمحذوفٍ تقديره: عابثين، حالاً من الضّمير المنصوب، أي: ذرهم عابثين في خَوْضِهِمْ، وحينئذٍ تصبحُ جملة: ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حالاً مُؤكّدةً لمضمونٍ ما قبلها. وأيّاً كان تعلّق الجارِّ والمجرور، فإنَّ وجوده مقدّمًا على الفعل، يجلي صورة هؤلاء الخائضين اللّاعبين الذين ما فتّئوا يعاندون الحُجَجَ الظّاهرة، والبيّناتِ السّافرة، ولم تنفع معهم محاورَةٌ ولا مذاكرةٌ، فأمر الله بتركهم وشأنهم؛ لأنّهم أحقرُّ وأصغرُّ من أن يهتمَّ بهم، أو ينظرَ إلى عنادهم، أو يلتفتَ إلى عيِّهم.

(1) السمين الحلبي، الدرّ المنثور: 36/5 - 37.

(2) الرّمخشري، الكشاف: 2/44.

(3) الألوسي، روح المعاني: 4/209.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/172.

بلغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ عبّر عن الباطل الذي هم فيه بالخوض، والمعنى: "في باطلهم الذي يخوضون فيه" (1)، وحقيقة الخوض الدخول في الماء، ثم استعير للتصرف الذي فيه كلفة أو عنّت، فاستعير في الآية للكلام الذي فيه تكلف الكذب والباطل؛ لأنه يتكلف له قائله، والخوض مختص في التعبير القرآني فيما يُذمّ الشروع فيه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، أي: يتكلمون بالباطل والاستهزاء (2).

النّهْي عن
الخوض مختص
في القرآن بما
يُذمّ الشروع فيه

دلالة التعبير عن عنايتهم باللعب في قوله: ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾:

أطلق على حُجَجِهِمْ وكيفية تلقّيهِم الوحي لفظ اللعب، فيجوز اعتبار اللعب هنا حقيقةً، ومجازاً، بأن يكون استعارةً تصريحيةً، كما ألمح بعضهم، منهم الزمخشري: "يقال لمن كان في عمل لا يجدي عليه إنما أنت لاعب" (3)، فقولهم وفعلهم، إنما هو "فعل اللاعب"، وهو ما لا يجزّ لهم نفعاً، ولا يدفع عنهم ضرراً، مع تضييع الزمان" (4)، فإذا صرفوا أنفسهم عن معالي الأمور بالإيمان بالله تعالى، وأتباع شريعته، فإنهم يخوضون في اللعب، وينصرفون عن الجدّ، وفيه "وعيد وتهديد بالمشرّكين" (5)؛ إذ شبّههم باللاعب الذي يضيع زمانه، فيما لا نفع فيه، ويهدّر جهده فيما لا جدوى منه، ولا فائدة فيه.

اللعب جهد بلا
نفع، ومزاولة
ضياع وخسران

❖ الفروق المعجمية:

(قَدَّرَ) و(عَظَّمَ) و(وَقَّرَ):

(عَظَّمَ) أصله يدلُّ على كِبَرٍ وَقُوَّةٍ، والتَّعْظِيمُ: التَّجْهِيلُ (6)، أمّا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/162، والآلوسي، روح المعاني: 4/209.

(2) الزّاغ، المفردات: (خوض)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/289.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/44، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/582.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/187.

(5) الفتوّجي، فتح البيان: 4/192.

(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عظم).

التَّعْظِيمُ
والتَّوْقِيرُ يَدْلَانِ
على تبجيل
الشيء، والعمل
على معرفة
كُنْهه

(وَقَرَّ)، فَإِنَّ أَصْلَهُ يَدُلُّ عَلَى ثِقَلٍ فِي الشَّيْءِ، وَالتَّوْقِيرُ: التَّعْظِيمُ، تَقُولُ: وَقَّرْتَهُ؛ إِذَا عَظَّمْتَهُ⁽¹⁾، وَالْوَقَارُ: السُّكُونُ وَالْحِلْمُ، يَقَالُ: هُوَ وَقُورٌ وَوَقَارٌ وَمَتَوَقَّرٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: 13]، وَفَلَانٌ ذُو قِرَّةٍ⁽²⁾. أَمَّا (قَدَّرَ) فَأَصْلُهُ يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وَكُنْهِهِ وَنَهَائِيَّتِهِ، وَالْقَدَرُ وَالتَّقْدِيرُ: تَبْيِينُ كَمِّيَّةِ الشَّيْءِ، وَتَقْوِيمُ الْأَمْرِ عَلَى مَقْدَارٍ يَقَعُ مَعَهُ الصَّلَاحُ⁽³⁾. فَيَلَا حَظَّ أَنَّ التَّعْظِيمَ وَالتَّوْقِيرَ يَدْلَانِ عَلَى تَعْظِيمِ الشَّيْءِ، أَمَّا التَّقْدِيرُ؛ فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ مَكَانَةِ الشَّيْءِ بِمَعْرِفَةِ كُنْهِهِ وَحَقِيقَتِهِ وَمُنْتَهَاهُ. وَفِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ أَنْ يَبَيِّنَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْظُمُوهُ، بَلْ إِنَّهُمْ جَهِلُوا كُنْهَهُ، وَأَسَاؤُوا وَصْفَهُ بِجَهْلِهِمْ ذَلِكَ، فَالسِّيَاقُ جَاءَ فِي نَفْيِ مَعْرِفَةِ الْمَكَانَةِ، وَهَذَا هُوَ مَدْلُولُ الْقَدَرِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، أَي: مَا عَرَفُوا كُنْهَهُ وَمَا عَظَّمُوا اللَّهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ، وَهَذَا صَحِيحٌ، وَتَلْخِيصُهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَصِفُوهُ بِصِفَتِهِ الَّتِي تَنْبَغِي لَهُ تَعَالَى⁽⁴⁾، وَالْمَعْنَى: "مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ"⁽⁵⁾.

(البَشَرُ) وَ(الْإِنْسَانُ):

لَفْظُ الْبَشَرِ، يَعْنِي: بَنِي آدَمَ مِنْ جِنْسِ الْإِنْسَانِ، وَلَا تَقَالُ كَلِمَةُ بَشَرٍ إِلَّا لِلْإِنْسِ، وَهُمْ الْمَكْرَمُونَ مِنَ الْخَلَائِقِ، الْمَكْلَفُونَ بِعِمَارَةِ الْكَوْنِ الَّذِينَ أَرْسَلَ اللَّهُ لَهُمُ الرُّسُلَ، وَأَنَاطَ بِهِمُ التَّكْلِيفَ، وَكَرَّمَهُمُ بِالْعَقْلِ الشَّافِي وَالْعِلْمِ الْمُنِيفِ، وَقَدْ أَحْسَنَ الرَّاغِبُ فِي إِيضَاحِ تَخْصِيصِ الْقُرْآنِ لَفْظَ الْبَشَرِ، فَاخْتَصَّ بِالسِّيَاقِ الَّذِي يَرَادُ مِنْهُ الْحَدِيثُ عَنِ الْإِنْسَانِ، بِاعْتِبَارِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ مَا خُلَاصَتُهُ: خَصَّ الْقُرْآنُ كُلَّ مَوْضِعٍ اعْتَبَرَ مِنَ الْإِنْسَانِ جَنَّتَهُ وَظَاهِرَهُ بِلَفْظِ الْبَشَرِ، نَحْوُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ

اخْتَصَّ لَفْظُ
الْبَشَرِ بِالْكَلَامِ
عَنِ الْجَسَدِ،
وَالْإِنْسَانِ
بِالْجَسَدِ وَالرُّوحِ
مَعًا

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عظم)، العسكري، الفروق، ص: 147.

(2) الراغب، المفردات، الفيروزآبادي، القاموس للحيط، (وقر)، إبراهيم الأبياري، الموسوعة القرآنية، ص: 147. والقرّة: الثقل.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قدر)، العسكري، الفروق، ص: 121.

(4) الراغب، المفردات: (قدر).

(5) الزمخشري، الكشاف: 2/44.

مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴿[الفرقان: 54]، ولَمَّا أَرَادَ الْكَفَّارُ الْغَضَّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ اعْتَبَرُوا ذَلِكَ فَقَالُوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٥٥﴾﴾ [الدَّحْر: 25]، ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: 15]، ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: 6]، وعلى هذا قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]، تنبيهًا أَنَّ النَّاسَ يَتَسَاوَوْنَ فِي الْبَشَرِيَّةِ، وَإِنَّمَا يَتَفَاضِلُونَ بِمَا يَخْتَصُّونَ بِهِ مِنَ الْمَعَارِفِ الْجَلِيلَةِ، وَالْأَعْمَالِ الْجَمِيلَةِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110]، تنبيهًا أَنِّي بِذَلِكَ تَمَيَّزْتُ عَنْكُمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ﴾ [مريم: 20] فَخَصَّ لَفْظَ الْبَشَرِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17] فَعِبَارَةٌ عَنِ الْمَلَائِكَةِ، وَنَبَّهَ أَنَّهُ تَشَبَّحَ لَهَا، وَتَرَاءَى لَهَا بِصُورَةِ بَشَرٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: 31] إِعْظَامٌ لَهُ وَإِجْلَالٌ، وَأَنَّهُ أَشْرَفُ وَأَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ جَوْهَرُهُ جَوْهَرُ الْبَشَرِ⁽¹⁾، وَفِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَرَادُوا فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ الْبَشَرَ بِاعْتِبَارِ خَلْقَتِهِ لَا يَتَأْتَى لَهُ - مَعَ وَصْفِهِ بِذَلِكَ - أَنْ يَكُونَ جَدِيرًا بِإِنْزَالِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ.

(القرطاس) و(الصُّحُف):

الْقِرْطَاسُ: أَدِيمٌ يُنْصَبُ لِلنُّضَالِ، وَيُسَمَّى الْغَرَضُ: قِرْطَاسًا، وَكُلُّ أَدِيمٍ يُنْصَبُ لِلنُّضَالِ، فَاسْمُهُ قِرْطَاسٌ، فَإِذَا أَصَابَهُ الرَّامِي قِيلَ: قَرَّطَسَ، أَيْ: أَصَابَ الْقِرْطَاسَ، وَالرَّمِيَّةُ الَّتِي تُصِيبُ: مُقَرَّطَسٌ، وَالْقِرْطَاسُ: الصَّحِيفَةُ الثَّابِتَةُ الَّتِي يُكْتَبُ فِيهَا⁽²⁾، وَهُوَ رَقٌّ يَنْبَسُطُ مَمْتَدًّا يُحْرَقُ بِسَهْمٍ، أَوْ يُؤَثَّرُ فِيهِ بِمَا يَشْبَهُ ذَلِكَ، وَهُوَ الْكَتَابَةُ بِقَلَمٍ لَهُ سَنٌّ دَقِيقٌ يَرَسُمُ فِيهِ⁽³⁾.

الْقِرْطَاسُ:
الصَّحِيفَةُ
الثَّابِتَةُ، وَهِيَ
الْبَسُوطُ
مِنَ الشَّيْءِ،
وَكِلَاهُمَا يُكْتَبُ
فِيهِ

وَأَمَّا (الصُّحُف): فَأَصْلُ يَدُلُّ عَلَى انْبِسَاطٍ فِي شَيْءٍ وَسِعَةٍ، وَالصَّحِيفَةُ: الْمَبْسُوطُ مِنَ الشَّيْءِ، كَصَحِيفَةِ الْوَجْهِ، وَالصَّحِيفَةُ:

(1) الرِّزَابُ، الْفَرْدَاتُ: (بَشَر).

(2) ابْنُ مَنْظُورٍ، اللِّسَانُ: (قِرْطَس).

(3) جَبَلٌ، الْعَجْمُ الْاِشْتِقَاقِيُّ لِلْوَضَلِ: (قِرْطَس).

الَّتِي يَكْتُبُ فِيهَا، وَالْكِتَابُ، وَالْجَمْعُ صُحُفٌ وَصَحَائِفُ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۖ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى: 18 - 19]، يَعْنِي: الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ عَلَيْهِمَا⁽¹⁾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝٢٠﴾ [التكوير: 10]: قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَي: "صُحُفُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، نُشِرَتْ لَهُمْ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَطْوِيَّةً عَلَى مَا فِيهَا مَكْتُوبٌ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ"⁽²⁾. وَعَلَيْهِ: فَالْقَرِاطِيسُ الْأَصْلُ فِيهَا: مَا كَانَ يَوْضَعُ هَدَفًا يرمى عليه، فَكَأَنَّ الْمُرَادَ بَيَانُ أَنََّّهُمْ يَهْدِفُونَ إِلَى بَعْضِهَا، بِالْإِخْفَاءِ وَالْإِهْمَالِ، وَهَذَا مَا لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ الصُّحُفِ.

(الإبداء) و(الإظهار):

الإبداء: يدلُّ
على ظهور بلا
قصدٍ، والظهورُ:
انكشافٌ بقصدٍ

"الظُّهُورُ يَكُونُ بِقَصْدٍ وَبِغَيْرِ قَصْدٍ، تَقُولُ: اسْتَرَفَ فُلَانٌ ثُمَّ ظَهَرَ، وَيدُلُّ هَذَا عَلَى قَصْدِهِ لِلظُّهُورِ، وَيُقَالُ: ظَهَرَ أَمْرٌ فُلَانٍ، وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ لَذَلِكَ، وَالْبَدُوُّ مَا يَكُونُ بِغَيْرِ قَصْدٍ تَقُولُ: بَدَأَ الْبَرْقُ، وَبَدَأَ الصُّبْحُ، وَبَدَتْ الشَّمْسُ، وَبَدَأَ لِي فِي الشَّيْءِ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَقْصِدْ لِلْبَدْوِ"⁽³⁾. وَعَبَّرَ فِي الْآيَةِ بِالْإِبْدَاءِ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّوْرَةِ؛ لِأَنَّ إِبْدَاءَ التَّوْرَةِ لَا يَتَعَلَّقُ بِقَصْدٍ مِنْهُمْ؛ إِذْ هُوَ كِتَابٌ مَتْلُوٌّ مَعْرُوفٌ، وَلَوْ قَالَ: (تَظْهَرُونَهَا)؛ لَاقْتَضَى أَنَّهَا كَانَتْ فِي الْأَصْلِ خَافِيَةً، وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ.

(الكتمان) و(الإخفاء):

الْكُتْمُ: خَاصٌّ
بِالْمَعَانِي،
وَالْإِخْفَاءُ: عَامٌّ
فِي الْأَشْيَاءِ
وَالْمَعَانِي

الْكُتْمَانُ: هُوَ السُّكُوتُ عَنِ الْمَعْنَى، وَالْمَكْتُومُ يَخْتَصُّ بِالْمَعَانِي كَالْأَسْرَارِ وَالْأَخْبَارِ؛ لِأَنَّ الْكُتْمَانَ لَا يَسْتَعْمَلُ إِلَّا فِيهِمَا، وَأَمَّا الْإِخْفَاءُ؛ فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ، وَالشَّاهِدُ أَنَّكَ تَقُولُ: أَخْفَيْتُ الدَّرْهَمَ فِي الثُّوبِ، وَلَا تَقُولُ: كَتَمْتُ ذَلِكَ، وَتَقُولُ: كَتَمْتُ الْمَعْنَى، وَأَخْفَيْتُهُ،

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّاعِب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قرطس).

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/418.

(3) العسكري، الفروق، ص: 343 - 344.

فالإخفاء أعمُّ من الكتمان⁽¹⁾. وعبر في الآية الكريمة: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ بالإخفاء دون الكتمان؛ لتعلقه بآيات متلوّة في التّوراة، فهي ليست معاني ولا أسرارًا.

(ذرهم) و(اتركهم):

(ترك) أصلٌ يدلُّ على التّخلية عن الشيء، التّرك: ودّعك الشيء⁽²⁾، فهو تركٌ ومفارقةٌ، ومنه ما يُعبر به عما يخلفه الميت بعد هلاكه، فيقال في المواريث: هلك هالكٌ وترك كذا وكذا، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: 7]. ويعبر بالترك عما يخلفه الميت من ذريّة، قال تعالى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ ضَعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: 9]، وكلُّ ما خلفه الإنسان أو تخلّى عنه رغبة أو رهبة، فهو متروكٌ، ويدخل في مجال اللفظ (ترك). وأمّا (ودّر) فأصله من الودرة: قطعةٌ من اللحم، وتسميتها بذلك لقلة الاعتداد بها، فلانٌ يذر الشيء، أي: يقذفه لقلة اعتداده به⁽³⁾، قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: 70]، أي: "أعرض عنهم، ولأتبال بتكذيبهم واستهزائهم"⁽⁴⁾. وفي الآية عبرٌ بالفعل (ذرهم) للدلالة على أنّ الله تعالى طلب من النّبي ﷺ، أن يهملهم ولا يبالى بهم؛ لأنهم لا يعتدُّ بهم تحقيرًا لهم، والتّرك يدلُّ على المفارقة من غير ذمٍّ للمتروك.

(الخوض) و(الشروع):

(خوض): أصلٌ يدلُّ على توسُّط شيءٍ ودخولٍ، يقال: خضت الماء وغيره، وتخاضوا في الحديث والأمر، أي: تفاوضوا، وتداخل

(ذَرَهُمْ) أَخْصَصَ
مِنَ التَّرْكِ؛ لِأَنَّهُ
تَرَكَ مَعَ إِعْرَاضٍ
وَقَلَّةِ اعْتِدَادٍ

الْخَوْضُ أَخْصَصَ
مِنَ الشَّرْعِ؛
لِأَنَّهُ شَرَعٌ فِيمَا
يُذَمُّ

(1) العسكري، الفروق، ص: 447 - 448.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللسان العرب: (ترك).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّاغب، للفردات: (ودر).

(4) الرّمخشري، الكشاف: 2/36.

كلامهم، والخَوْضُ: الشُّرُوعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ويستعارُ في الأمور، وأكثر ما وردَ في القرآن ورد فيما يُذَمُّ الشُّرُوعُ فيه، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَرَّهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾⁽¹⁾. وكذا (شرع) أصله: شَيْءٌ يَفْتَحُ فِي امْتِدَادٍ يَكُونُ فِيهِ، مِنْ ذَلِكَ الشَّرِيعَةُ، وَهِيَ مَوْرِدُ الشَّارِبَةِ الماءَ، شرع: شَرَعَ الواردُ الماءَ شَرْعًا فهو شارع، وأبْلُ شُرُوع: قد شَرَعَتِ الماءَ تشربُ، والشارع من الطريق: الَّذِي يَشْرَعُ فِيهِ النَّاسُ عَامَّةً⁽²⁾.

فِيْلَا حَظَّ تَقَارُبِ الْمَعْنَيْنِ؛ فَكِلَاهُمَا يَدُلُّ عَلَى الدُّخُولِ، وَلَكِنْ فِي الْخَوْضِ دَلَالَةٌ خَاصَّةٌ، فَهُوَ يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَذْمُومِ، وَلَيْسَ مَطْلَقَ الدُّخُولِ وَالشُّرُوعِ، وَفِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لَمَّا كَانَ حَدِيثُهُمْ فِيْمَا يُذَمُّ عَبَّرَ عَنْهُ بِالْخَوْضِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خوض).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شرع).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 11، 808 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-63-7

يشتمل على ارجاعات بيبليوجرافية.

مج. 11: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-798-63-7

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»